قرأت العدد الماضي من "آداب"

الأبحاث

علي ذو الفقار شاكر

« نحن عندما نطرح في بلادنا هذا السؤال : ما هي الثقافة ؟ لا نفكر بالدرجة الاولى في ضروب التسلية التي يمكن ان تقدمها لنا الفنون الفلكلورية والمسرح والشعر ، ولكننا نفكر اولا في الحقائق المحسوسة للتخلف ، في البطالة ، والامية ، وسوء التغذية ..

والتخلف جغرافيته وتاريخه ، اما جغرافيته فهي تشمل المساحة التي تنتظم على وجه التقريب نصف الكرة الجنوبي والتي تقع في نطاقها في جميع الاحوال بلدان « ناندونج » الافرو ـ آسيوية » .

وعلى الجانب الاخر « تلك المناطق البيضاء للبلدان التي توجد في حالة تقاعد بالنسبة الى معركة المفاهيمية (اي معركة التغلب على عوامل التخلف وعلى رأسها الاستعمار والمفاهيم المعوقة لحركة النمو الحضاري) اعني البلدان المتغيبة فعلا عن المأساة البشرية الكبرى لعصرنا » .

كانت هذه بعض كلمات الفيلسوف الجزائري ـ الذي توفي اخيرا ـ مالك بن نبي في محاضراته التي القاها في الجزائر عام ١٩٦٤ معبرا عن رؤيته للعالم من داخل لهب الثورة الجزائرية منقسما الى قسمين، بلدان العالم الثالث التي تسعى الى التحرر من الاستعمار ومن تخلفها في صراع حضاري ملتهب ، والبلدان الشمالية الهانئة في ظلال الحضارة الوارفة .

وفي النصف الجنوبي للكرة الارضية يقف محمود درويش حيث لا ظل تحت شمس الصراع العمودية ليصرخ في العالم انه يكتب « في درجة الغليان » ، وعلى الجانب الاخر يقر سولجنتسين من الجزء المشرق في الاتحاد السوفيتي الى الغرف الغربية الرطبة ليقول «دعونا نترك العرب لمصيرهم فلديهم الاسلام وسوف يتدبرون امورهم بانفسهم ودعونا نترك امريكا الجنوبية لمصيرها فليس هناك من يهدد بالاستيلاء عليها ، ودعونا نترك افريقيا لتكتشف بنفسها كيف يمكنها ان تخطو خطواتها الى الحضارة ومفهوم الدولة » .

ففي مقالة محمود درويش « الكتابة في درجة الغليان » ـ التي كتبها لندوة عقدت في طوكيو في حزيران / يونيه ١٩٧٤ دعا اليها اتحاد الكتاب اليابانيين تعبيرا عن تضامنه مع الكتاب العرب ـ حاول ان يروي قصته ـ قصة الادب وسيرته في العالم الثالث ، ليحقق حضوره مع الحضور الانساني الشامل ومع الحياة ذاتها . من خلال الوعي المتقن بان « ابناء شعوب آسيا وافريقيا اكثر الحالات الانسانية تشابها ، فما زالت شعوب كثيرة في قارتينا موضوعة خارج المشاركة الابداعية في تشكيل حياتها كما تشاء ، وفي التاثير على مضمون العصر ولغته ، وما زالت مدفوعة الى مجابهة التحدي الخارجي الذي ياخذ تجليات شديدة السلبية في الداخل ، وما زالت الامبريالية احد ابرز المعوقات التي تصرفنا عن الانصراف الاكمل نحو اختبار قدراتنا على ابداع حياتنا الجديدة وثقافتنا المتحررة والحرة . »

وكالقصص الازلية « كانت الارض .. كان المكان » فلسطين العربية = الارض والمعنى،والفلسطينيون = العرب = كل الشعوب المناضلة من اجل الحرية ، هما الشخصيتان الدراميتان في القصة امام الاستعمار البريطاني والفرنسي والايطالي فالصهيوني . والارض تسلب من اصحابها الذين لا يالفون الغزو ولا يسلمون بشرعيته بل يواصلون الصراع ، لهم كان التاريخ عليها ، وبهم سيكون ، لكنهم يغتربون احيانا ثم يولدون في درجة الغليان في الصراع بين النفي ونفي النفي للانسان وللارض . ويتبلور المحتوى الاساسي للادب في مواصلة الصراع من اجل اثبات الذات بالمقاومة .

ويصف محمود درويش اعتى مشكلة فنية تواجه الاديب العربي وتحاصره ، وهي الاختيار بين الرفض الكلي للثقافة البرجوازية الغربية ، او اللجوء الكلي ايضا الى الثقافة القومية الماضية بكل عناصرها . وليس توفيقا دارجا بين الاضداد ، ولا اختيارا تقليديا للوسط يرفض محمود درويش الخضوع كلية للثقافة البرجوازية المسيطرة ويرفض الخضوع التام ايضا لحرفية ثقافتنا الماضية التفصيلية في اصرار على ان نحرر ثقافتنا القومية من محاولات طمسها الخارجية ومن محاولات تحنيطها الداخلية ، نقبل محتويات ثقافتنا الماضية التي ظلت قادرة على انقاذنا الايجابي من تحديات العصر ومتطلبات نمونا ، ونقبل كذلك ما جاوز ـ من ثقافات الامم ـ صدفته القومية ليذوب مسهما في عملية الابداع الانساني الشامل .

وهذا الموقف عند هذه القضية ليس موقفا اصلاحيا مجددا ، ولكنه المنطلق الثوري الاكثر تطورا لتحقيق الانتماء القومي على مستوى العصر ، وهو الذي يتيح ـ بعده ـ للاديب العربي ان يواجه وهمه وواجبه في ان يغير الواقع .

وتغيير الادب للواقع او العالم لا يتم وفقا للمنهج الرومانسي بالتفرد او الترفع عن المعطيات الواقعية . ولكنه حين يؤمن الاديب بالحلم الجماعي ويبشر بالتغيير في مرحلة الفاعلية السلبية ويندمج في قوى التغيير في مرحلة الفاعلية الايجابية ـ يصبح قادرا على المشاركة في الثورة ارهاصا وفعلا .

ومن هذا يتحدد التزام الاديب العربي ، فبتحقيق انتمائه القومي وايمانه بالامل الجماعي في الحرية واثبات الذات الحضارية ان يستطيع ان يقوم بواجبه لامته ، وهذا هو دوره في جميع انحاء العالم الثالث (الشرق) الذي حجب طويلا عن المساهمة في الثقافة العالمية الشاملة .

* * *

وفي النصف الشمالي من الكرة الارضية نرى سولجنتسين ـ في مقال شفيق مقار ـ يبتعد عن النصف الملتهب من العالم ليبترد قريبا من درجة الصفر ، يخطر متانقا في حلة مطرزة بالفن المترفع عن الغايات الانسانية ، مديرا ظهره لكل بشاعات الارض التي سببها بنو جلدته

البيضاء في القرنين الماضيين رغم معرفته بها ، منصرفا الى الاهتمام « بالمشكلات الاخلاقية للمجتمعات المتحضرة العليا رأسمالية كانت ام اشتراكية » باحثا عن ترف المرأة ونعومة يديها في (الروسيا) .

على النقيض من محمود درويش ـ اديب العالم الثالث ـ يرى سولجنتسين ان الفنان « ليس مدينا بشيء لاحد » وليس عليه التزام ما تجاه الانسانية ، فهو شخصيا ـ اي سولجنتسين « يتمنى الخير لكل الشعوب ... غير ان مصير الشعوب الروسية والاوكرانية هو الذي يشغلني فوق كل شيء » ، ويخاطب زعماء الدولة السوفيتية قائلا « منذا الذي يمكن ان يتردد في التوقف عن تمويل ثوار امريكا الجنوبية من اجل الانصراف الى تحرير نسائنا من هذه العبودية (عبودية العمل اليدوي) .. « وان حكاية تبنينا لماوتسي تونج بدلا من جار مسالم كتشانج كاي تشيك ومساعدتنا له على دخول سباق التسلح النووي من حكايات التاريخ القريبة . والان الا ترانا سائرين الى غلطة مماثلة مع العرب ايضا » .

ان سولجنتسين وليد معطيات اصيلة في وجوده ، فهو فنان اوربي ورث الحضارة الاوربية بكل جوانبها ، وعاش في الاتحاد السوفيتي الذي الزم نفسه كدولة بقضايا التحرر الوطني في العالم الثالث بحكم انتماء جزء ضخم منه جغرافيا وتاريخيا الى العالم الثالث ، وبحكم المبادىء التي اقتنعت بها اغلبية جماهيره التي قامت بالثورة البلشفية ، فضلا عن المصالح التي يحققها انيا بتدعيم حركات التحرر الوطني ، وفي السنوات الاخيرة ـ وليس في غيبة قوى الصهيونية العالمية ـ ازدادت فيه نزعة التبرم باعباء هذا الالزام وثقل هذه المسئولية ، كما تصاعدت فيه ايضا نزعة الطموح ـ بعد ان جاوزت الثورة عامها الخمسين ـ الى مجتمع اكثر رفاهية ، وعاودت الشق الاوربي منه مشاعر الحنين الى توأمه في اوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية .

« هكذا تكلم سولجنتسين » ، ولكن كيف تكلم شفيق مقار ؟ ، لقد حاول فيما يبدو لي اخفاء اعجابه به ما استطاع ، وقد ينجح في ايهام القارىء لاول وهلة انه قد تناول المسالة تناولا موضوعيا خالصا.

فهو بلا ريب معجب برأي سولجنتسين في الفن حين يلخصه : باننا اذ نمسك هبة الفن بين ايدينا شاننا في ذلك شان المتوحش البدائي الذي يعثر على شيء لامع جميل ... ثم « نحاول ان نسخر هذه الهبة ونستعملها احيانا في الترفيه وفي الاغاني الشعبية واستعراضات الكباريه ، كما نستخدمها في احيان اخرى كسد خانة او كسلاح يخدم احتياجات سياسية عابرة ، او يشبع مطالب اجتماعية محدودة غير ان الفن لا يكترث لنا ولا يتلوث بمحاولاتنا » . ويعلق شفيق مقار بان « هذا كلام طيب وجميل » ثم يقول « فهو اي سولجنتسين ـ بايجاز ليس هروبيا وليس انعزاليا ورغم ازدرائه لفن القضية ليس دون النضالية . كل ما في الامر انه على النقيض من النضاليين الملتزمين كتاب فن القضية الذين الفناهم من عالمه حتى الان، يضع نضاليته والتزامه ضد القضية الماركسية في جانب قضية اخرى » .

وواضح من اقوال سولجنتسين ان القضية ليست « ضد القضية الماركسية » ولكنها ضد العالم الثالث كله ، ضدنا نحن العرب ، ضد امريكا اللاتينية وضد افريقيا ، اي ـ بايجاز ـ ضد كل ما ليس اوربيا (روسيا واوكرانيا) فلماذا يعتذر عنه شفيق مقار ؟!

وعندما يقول سولجنتسين في خطابه لزعماء بلاده « منذا الذي يمكن ان يتردد في التوقف عن تمويل ثوار امريكا الجنوبية من اجل الانصراف الى تحرير نسائنا من هذه العبودية (عبودية العمل اليدوي) » يقول شفيق مقار محاولا تبرير هذا الموقف : « ولم ؟ لان احساسه الديني ربما قد اوذي واستنفرت حميته لمرأى المرأة الروسية وهي تعمل في المصانع والحقول وشوارع المدن » فهل رؤية المرأة الروسية العاملة يؤذي الاحساس الديني لمن يقول ـ برواية شفيق مقار نفسه ـ « لا يجب ان نشغل انفسنا بمصائر انصاف الكرة الاخرى .. ذلك شيء يجب ان نتخلى عنه الى الابد » ، ويقول « لا سبيل الى انقاذه (اي العالم الثالث) الا بالتكنولوجيا ذات النطاق الصغير التي تتطلب زيادة العمل اليدوي لا تقليله وتستخدم ابسط الآلات » ؟! لا اظن ، فلماذا ؟ هل اقترب شفيق مقار ـ باقامته في لندن ـ من درجة الصفر وتباعد عن درجة الغليان .؟

* * *

ولماذا ايضا خلا العدد الماضي من الاداب من رأي الدكتور سهيل ادريس في ترشيح يوسف السباعي لاحدى جوائز اللوتس التي منحت له من اتحاد الكتاب الافريقيين الآسيويين ؟

فقد جاء في باب قضايا الادب والادباء ان الدكتور سهيل ادريس ـ في اجتماع المكتب الدائم لاتحاد الكتاب الافريقيين الاسيويين في موسكو في حزيران (يونية) الماضي ـ قد عارض في ترشيح السباعي للجائزة « لاسباب ليس المكتب الدائم صالحا لذكرها » . (*)

* * *

يقول خالد البرادعي في تمهيد مقاله الممتع « قراءة نقدية لسبعة دواوين » : « .. هذا الحديث القادم اليك ليس اكثر من اشارة شخصية الى سبعة دواوين من شعرنا المعاصر صدرت خلال سنتين فقط ، وكثيرا ما تخطىء لو ظننتني ناقدا ، فما انا ذاك .. لا مناهج في النقد اعرفها ، ولا مسالك للنقد ارتادها .. »

ومع ذلك فان البرادعي في ثنايا حديثه عن الدواوين السبعة يجدل جدلا دقيقا وجميلا ثلاث قضايا اساسية في حركة الشعر العربي المعاصر ، هي عنده كذلك خصائص الشعر الجيد ، اراها تضم الدواوين السبعة في عقد واحد .

القضية الاولى في ثنايا مقال ـ بحث البرادعي هي الوضوح ، وبطلها الحاضر نزار قباني ، وبطلها الخفي ادونيس .

ويحدد البرادعي موقفه بسرعة في تمهيد المقال فهو مع الوضوح، وهو عنده شرط من شروط الشعر الجيد ، وعن ديوان « اشعار خارجة على القانون » لنزار قباني يقول البرادعي « ان اخطر ما في الديوان وضوحه » .. وهذه الخاصة التي روضها نزار منذ بداياته الاولى تمكن من تعميقها اكثر في هذا الديوان ، وتعمد او كانه تعمد الالحاح عليها ليثبت من جديد ان كلا الوضوح والغموض امران او

(*) تعليق من التحرير : تضمن بيان اتحاد الكتاب اللبنانيين الذي صدر يوم ٦ تموز الجاري رأي د. سهيل ادريس ، وفيه ان الوفد اللبناني عارض في الترشيح « ايمانا منه بان الاستاذ السباعي لا يستحق هذه الجائزة بسبب من طبيعة انتاجه الادبي ومواقفه المعروفة منذ مؤتمر الادباء العرب في تونس من قضية حرية التعبير في القطر المصري الشقيق ، كذلك في ضوء الشروط الموضوعة لنيل هذه الجائزة . »

قضيتان يحددهما الشاعر ولا تحددهما المناهج والاشكال » .

اما محمود درويش في ديوانه « احبك او لا احبك » فكان اقل وضوحا ، بكتتم الغموض بعض اطراف قصائده فتغوص دلالاتها حينا وتطفو حينا ، كذلك يبدو لـه سعدي يوسف في ديـوانـه « الاخضر بن يوسف ومشاغله » فيحتاج « الى قراءتين او اكثر » ، بينما تقترب فدوى طوقان من نزار في الوضوح في ديوانها « على قمة الدنيـا وحيدا » فهي « .. لا تغوص وراء السراديب والرموز الغامضة فتقطع صلتها بقارئها ، انها معه ، قربه ، يفصل بينهما حجاب من زجـاج شفاف ، وكل ما تقوله يصل وببساطة محببة ذات دفء وحنـان » ، كذلك كان حسب الله الشيخ جعفر في ديوانه « الطائر الخشبي » « .. فكل ما يريد ان يقوله واضح » .

اما بلند الحيدري في ديوانه « حوار عبر الابعاد الثلاثة » ففي شعره غموض ما « .. ولكنه غموض لذيذ » فما هي حدود الغمـوض التي تجعله مقبولا عند البرادعي ؟ انه الذي « .. لا يكون تعقيـدا واحتطابا للصور وحشرها في سلك واحد » وقـد كـان غموض شعـر الحيدري من هذا النوع . وكذلك كان مصطفى جمال الدين في ديوانه « عيناك واللحن القديم » .

والقضية الثانية هي اللغة ـ التراث ، وموقف البرادعي منها محدد ايضا ، فكلما توثقت صلة الشاعر بالتراث زادت قدرته على استعمال مفردات اللغة ، وبالتالي خلت اشعاره من المعاظلات اللفظية وانسياب تعبيره دون تعثر ، وهي خصيصة تنتظـم الدواويـن السبعة التي ضمها البرادعي في قراءته النقدية .

اما القضية الثالثة فهي ما اسماه بالصفاء من الزوائد، فالثرثرة الشعرية عيب اساسي في الشعر يدل على قصور الابداع وعجزه . وايضا يضم هذا العامل الدواوين السبعة جميعا .

وتبقى ـ فضلا عـن هذه الخصائص الجامعـة للدواويـن السبعة ـ لكل ديوان مميزاته وخصائصه الخاصة به .

فهل يكون اعتماد الوضوح ، وسلاسة التركيب اللغوي، والصفاء من الزوائد ، منهجـا لرؤيـة نقديـة متكاملـة للشعر ؟ لم يزعم خالد البرادعي انه اعتمد منهجا نقديا .

* * *

اما الدكتور طه الوادي فقد فعل ـ في مقاله بعنوان « التذوق الفني للادب ـ دراسة تطبيقية » ـ وحدد بطريقة مدرسية «الخطوات التي ينبغي ان يقوم بها التلقي حتى يستطيع ان يعيد تشكيل التجربة الادبية ويكشف لنفسه ، او للاخرين ، ابعادها الفكرية والفنيـة . (وطبق ذلك على قصيدة غريب على الخليج للسياب) . وهـذه الخطوات هي :

اولا : التعرف على الاطار الاجتماعي الذي كتب الشاعر في ظلـه القصيدة ، حتى يساعدنا ذلك على تبصر موقف الشاعر وادراك عمـق التجربة التي يقدمها .

ثانيا : النظر الى النص على انه مرحلة او حلقة في تاريخ نوع (ادبي) بعينه له سمات خاصة .

ثالثا : ادراك التميز او التفرد الذاتي للاديب ، في جانبين :

ا ـ طريقة الاداء اللغوي للعبارة .

ب ـ طبيعة التخيل ومصادره .

رابعا : تحديد موقف الاديب من قضية النص ، ومـن قضايا عصره وامته .. فعلى الاديب ان تكون له رؤية خاصة وان يكون لـه موقف يلتزم به .

وهذه المراحل او الخطوات التي حددها الدكتور الوادي على شموليتها من جانب وصرامتها من جانب اخر « تساعد على تحديـد اسس دراسة النص وتذوقه ، وهذه المنهجية في التذوق تساعـد كثيرا في ضبط المنهج النقدي لفهم الادب وتقويمه .

* * *

وعلى الرغم من التحديد ـ الذي قد يبدو اضيق من حركة الفن في ابداعه وحركة النفس في تلقيه ـ في المناهج المماثلة لمنهج الدكتور الوادي ، الا ان افتقاد المنهج يضجر النفس عند قراءة المقالات التي تكتب على غير نسق يجمع شتاتها ، فتظل رغم تكرار القراءة والتدقيق فيهـا ركامـا هشا من الخواطر المفككة .

ومن ذلك مقالة جورج سعد « الانسان ومفهوم الزمنية في شعر ميشال سليمان » تجده فجاة يقول « غير ان امتحان الوجود يقـف متحديا جذريات الشاعر والشعر ، وليكن ذلك الفارس المقتحم ، جواد ياكل الدرب حينا ويضيع في فلوات الفراغ . مضى الجواد ولـكن الفارس بقى يصارع الزمن لا من اجل البكاء على اطلال الهزائم ... بل على الحياة التي يصرخ عليها مـن قلب الغضب وليس مـن قلـب الخوف كما يفهم الاخرون .. لان كاس المرارة صعب المذاق وطعـم الحجارة اليم وجراح الدهـر تعلم الشاعـر حق الصراع وواجب الوقفة المتحدية . وليس في تعبير الشعراء الاخرين الا وقفة الغربة » .

ولا تفرق هذه الالفاظ المجموعة بل توقف امام الحكم المعتسف بلا مقدمات « ليس في تعبير الشعراء الاخرين الا وقفة الغربة » .. كيف ؟ .

ويتساءل سعد في ثنايـا مقاله « هـل سويت كلامـي بمستـوى رحلة ميشال سليمان الشعرية الفنية الطويلة ؟ » لا يا صديقي ، دع ميشال سليمان في حاله .

* * *

اما يوسف اليوسف في مقاله عن ديوان « طائر الوحـدات » لاحمد دحبور فقـد كان اكثر تواضعا وانتظامـا ، فقد وضع يـده فـي الديوان على سبع خصائص ميزته ، هي : القدرة على التوصيل في غير اسفاف ، غنائية تواكب كل بيت في القصيدة وتضفي على جـو الشعر الق الجمالية العذبة ، تقنية معاصرة تبتعد على المباشرة النثرية والنهج التقليـدي ، رعشة حس المأساة والامل الذي لا يفتر فـي المستقبل ، رؤية واضحة للبيئة تفصح عن المكنون بوضوح وجراة ، استفادة من الموروث الثقافي والتاريخي والمأثور الشعبي ، واخـيرا النسق الجامع لقصائد الديوان حتى لكانها مقاطع ملحمة واحدة .

* * *

وكان حظ الشعر هو الاوفى في هذا العدد من الابحاث والمقالات ولم تنل القصة الا بحثا واحدا لعبدالجبار عباس بعنـوان « منـاخ ما بعد النكسة في قصص الجريمة » يتناول مجموعة « الجريمـة » لنجيب محفوظ ، ويرصـد فيهـا ملامح تعبيـر نجيب محفوظ مـن الاثار العميقة لمناخ النكسة في حياة الناس ، ملاحظـا ان نجيب في هـذه المجموعة « يقترب من مواقع ورؤى القصاصين العرب المجددين دون ان يشاركهم الانبهار بالاشكال الجديدة او الانزلاق للمعالجات الفجـة والسريعة ، وان هذه المحاولة الجادة والامينة تجعل اقاصيص الكتاب مباحث اخلاقية صغيرة .

القاهرة